الفصل العاشر

تدريبات الأمان

بعض التدريبات لا شأن لها ببناء الشخصية، إنما الغرض منها الحفاظ على حياة طفلك وصحّته. قد تبدو هذه الإيضاحات قاسية للبعض، لكني اختبرت، مثلي مثل العديدين غيري، أن هذا المنهج فعّال وآمن على حد سواء.

الموقد الساخن

كنا دائماً نستخدم موقداً يعمل بحرق الحطب في الطبخ والتدفئة. وقد يحترق الصغار حروقاً بالغة من موقد متوهّج كهذا. وفعلاً نتج عن استعماله حروق لا بأس بها، لكننا لم نخشَ، لعلمنا بفعالية التدريب. عند إشعالنا النّيران لأول مرة في الخريف، كنت أستدرج طفلي الصغير ليرى ألسنة اللهب السّاحرة. وبالطبع، كانوا دائماً يريدون أن يلمسوها، فكنت أمنعهم حتى يحمى الموقد بحيث يشعرهم بالألم دون إحداث حروق عميقة، وكنت ألمسه بيدي للتأكد من ذلك. وعندما تصل الحرارة إلى الدرجة المناسبة، كنت أفتح الباب وأبقيه مفتوحاً حتى تجذبهم ألسنة اللهب، وعندها كنت أبتعد. وحتماً كان الطّفل يجري إلى الموقد ويلمسه. وما أن تمس يده الموقد، حتى أقول: «ساخن!» استلزم الأمر عادة مرّتين، وأحيانا ثلاث مرات، لكنهم جميعا تعلّموا الدرس. بخلاف الجلسات التدريبية، التي لم ينتج عنها أبسط حرق، لم يُصَب عندنا أي طفل

بالحروق. وقد كان لهذا التدريب تأثير كبير جداً، حتى أنني إذا أردت فيما بعد أن «يضربوا شقلباظاً»، كنت لا أقول سوى: «ساخن»، فلو كان أحدهم ممسكاً بكأس مثلّج، لأطلقه من يده.

شعور بالغرق

عندما كان أطفالنا في طور النمو، كنا نعيش في دار له بِركة في الفناء. ولما كبروا واستطاعوا السير والتجوال خارج البيت، كنا نراقبهم دائما عن قرب. لكن خوفاً من اختفاء أحد منهم عن الأنظار، شدّدنا معهم التدريب. ففي يوم ربيعي دافئ، تعقّبت أول طفلة استجابت لجاذبية الماء. لعبت في البداية حول الحافة حتى وجدت سبيلاً للنزول إلى الماء. ووقفت بالقرب منها ثم انحنت ومدّت يدها إلى صفحة الماء المشرقة. طِش! فإذا بها تغطس.

كانت المياه شديدة البرودة. كتمتُ قلقي إلى أن استطاعت أن تعدّل وضعها في الماء وتدرك عجزها عن التنفّس. ولما أصابها الفزع (وأصابني أنا أيضاً، ناهيك عن أمّها)، سحبتها إلى الخارج ووبّختها على اقترابها من البركة. لم تكن ابتلعت ماءً، فلم نحتَج إلى إنعاشها، فيما عدا زوجتي التي استغرقت بضع ساعات حتى عادت تتنفّس بشكل طبيعي! كرّرنا نفس العملية مع كل الأطفال. لم يستلزم الأمر سوى مرة واحدة فقط لكلٍّ منهم ليتعلّموا احترام الماء. فسَهُل الأمر علينا.

لكننا واجهنا مشكلة مع واحدة منهم، استطاعت السير مبكّراً، إذ حبت في أربعة شهور ومشت في الشهر السابع. كانت تتمتع دائماً بتوافق عضلي رائع، لذلك لم تسقط في الماء قط! أصابني الإعياء من السير معها إلى البركة. لذلك دفعتها أنا بنفسي في الماء لكي تتعلّم الدرس وتحفظه. وحتى مع ذلك، حافظت على توازنها فوق الماء، لذلك وكزتها بقدمي دون أن تلاحظ. إلى هذا اليوم أعتقد أنني إذا لم «أزقّها» كانت ستسبح وتخرج من الماء وحدها. لكن سقوطها هكذا كدّرها بحيث امتنعت عن اللعب حول البركة.

لكن الدّرس لم يُبقِهم بعيداً عن الماء: تعلّم أطفالي السباحة ببلوغهم أربعة أعوام. وكنا نراقبهم عن قرب، فلم تقع أي حوادث. نجح التّدريب. لكن للتحذير نقول: لا تجرب هذا ما لم تكن متأكّداً من قدرتك التامة على التحكم في جميع الظّروف.

اخرجا بسرعة

في الشتاء الماضي، كانت ابنتاي، اللتان تبلغان التاسعة والحادية عشر، تركبان معي في سيارة شحن ٤ x ٤ (بفتيس غرز) قديمة، وكان الطريق وعراً مليئاً بالمطبّات. وعندما توقفت عند تقاطع ما، سمعت «ماساً» في البطاريتين، اللتين وراء المقاعد مباشرةً، وتحوّل «الماس» إلى شرار. معنى ذلك أن البطاريتين كانتا على وشك الانفجار، وأنّ الأحماض بداخلهما ستتطاير في أنحاء الشاحنة. وطبعاً لم تفهم الفتاتان أيّاً من ذلك. لكن عندما قلت (هذه المرة بصوت عالٍ): «اخرجا بسرعة!»، لم يسألا: «لماذا؟»

خرجت فوراً من ناحيتي وجريت حول الشاحنة لأفتح بابهما لأنه عادة ينحشر. وحالما تخطّيت الباب من ناحيتي، نظرت إلى الوراء لأطمئن على حالهما، لكنهما كانتا قد اختفيتا .. وكان الباب لا يزال مغلقاً. أمّا النّافذة، التي كانت «تُعصلِج» أيضاً، فكانت مفتوحة حتى منتصفها. أمّا هما فلم تكونا على مرأى البصر. فتقدّمت إلى الجانب الآخر، وإذا بهما منطرحتان على الطريق الواحدة منهما فوق أختها، تدعكان أياديهما وركبهما المخدوشة. فسألتهما: «كيف تمكّنتما من الخروج؟». فأجابتا: «من خلال النّافذة». فسألتهما: «برأسكما أولاً؟». فأجابتا معاتبين: «لقد أمرتنا أن نخرج بسرعة».

أمّا ابني، الذي كان يسوق سيارة شحن أخرى خلفي، فقال: «أنا لم أعرف ما كان يجري. فجأة طار كلاهما خارج النّافذة برأسيهما أولاً وهبطا في الطّريق». قد درّبتهما أن يقفزا بمجرد الأمر .. فنفذّا ما أمرتهما به. قد يجيء وقت تعتمد فيه سلامتهم أو بقاؤهم على قيد الحياة على الطاعة الفورية. وكم من إنسان نجّاه قول: «طأطئ رأسك!» أو «انبطح أرضاً!»).

درّبهم على الواقع

العالم يناصبنا العداء، لذلك يجب أن يتعلّم الطفل مبكّراً أن يتخّذ الحيطة. فلا تنقل إلى أطفالك إحساساً مُلطّفاً للواقع، إنما علّمهم عن المرتفعات والسّقوط، عن المسدّسات وخطر السّكاكين والمقصات، والحذر من الأعواد والأسلاك الحادّة، من هول النّار وخطر السّموم والكهرباء. درّسهم .. درّبهم تدريباً عملياً .. اشرح لهم

بالأمثلة .. عرّضهم للموت، موت حيوان أليف، أو ضحيّة في حادثة. ويجب أن يتم ذلك بوقار وهدوء مطمئن، لا في روح الخوف. كذلك لا تكُن مفرطاً. لعل مثالاً واحداً أو مثالين لابن الثلاث سنوات يكفي. سيطر على بيئتهم، لكن لا تمنع وصول الواقع. عرّضهم له بمستوى يتناسب مع إدراكهم وبدرجة تتلاءم مع نضجهم. والهدف هو أن يسبق التدريب الهجمات الخارجية فينتبهون لها عند وقوعها.

الإسراع في تلبية الأوامر

أنا قائد الجيش، وزوجتي هي مساعدي ومستشاري .. هي التي تتلوني في الرتبة عندما أكون غائباً. أحكم بالإحسان. الحبّ والاحترام هما أدواتي الأولى للإقناع. أنا أقودهم بنفسي، ولا أصدر لهم الأوامر من «دوشمة» بعيدة. أولادي يعرفون أنّي مستعد للتضحية بحياتي من أجلهم، ولذلك هم على استعداد بالتضحية بحياتهم من أجلي. كذلك يبتهجون ويفتخرون بكونهم أعضاء في الفريق. والطاعة الفورية للأوامر هي جزء من عملهم في الفريق. وبذلك ينسجم فريقنا المنزلي بسهولة فننجز أهدافنا المشتركة.

قد علّمت الأطفال أن يطيعوا أولاً ثم يسألوا الأسئلة بعد ذلك. عندما كانوا صغاراً، تعلّموا الطاعة الفورية للأوامر. فإذا تكاسلوا أو تباطؤوا، كنت أدرّبهم. «اجلس. لا تتكلّم حتى آذن لك» وهكذا. لكني لم أكن أتحكّم و«اتأمّر» فيهم للتنفيس عن إحباط ما، بل تمّ كل ذلك بنفسٍ طيبة وعادة بروح من المرح. فكنت أقول: «قِف.

تعالَ هنا الآن. اذهب المس الباب». وقبل أن يصل إلى الباب، كنت آمره أن يجلس. فيجلس على الفور. «والآن اذهب إلى غرفتك ونظّفها». فكان الواحد منهم يمضي إلى أداء مهمته مثل جندي صغير فخور بنفسه.

فإذا أظهر أحدهم رفضاً أو توانياً، كنت أصفعه .. بدون استعجال أو عداوة. كنت أتعامل مع الإهمال والرعونة بصبر وتسامح، لكن التمرّد والكسل كان عقابها العصا.

قد تستشعرون من كلامي ببرودة وقسوة. لكن أتمنّى غير ذلك، فقد كان هذا التدريب مفعماً بالحب والدفء والمودة، وأنتج أطفالاً مخلصين، مجتهدين، فعّالين، هادئين، واثقين، وناضجين. في الحقيقة، بسبب انتظامنا على التدريب، قلّما نال الأطفال عقاباً. بل سرعان ما تعلّموا أن كل تعدٍّ ومعصية ينال «مُجَازَاةً عَادِلَةً». علموا بدون شك أنّه حتى الطاعة المؤجلة تُقابَل بالعصا. هذا لأننا عاملنا الطاعة المؤجلة كما نعامل العصيان. مثل هذا الحزم إذا مورِس بانتظام يؤدي إلى إحساس بالأمان.

حتى اليوم، دون النظر إلى الأطفال، يمكن أن «أطرقع» إصبعي مشيراً إلى الأرض، فيجلسون على الفور، من كبيرهم إلى صغيرهم. أستطيع أن أشير إلى الباب، فيخرجون. وعندما تتطوّر زيارة ما إلى جلسة مشورة، أُومِيء إلى الأطفال بالإشارة فيغادرون الغرفة، دون أن يدرك الضيوف سبب مغادرتهم. علّم أطفالك «الإسراع في تلبية

الأوامر». وسيعود عليهم ذلك بالمنفعة، حيث يجعلهم ذلك محبّبين - وما أسهل أن تحب أطفالاً كهؤلاء.